

مراجعات كتب :

(٢)

مفتي اسطنبول

مراجعة رضوان السيد

يصف المبعوث السري لدوق Burgundy إلى الأراضي المقدسة الموكب الذي دخل به السلطان العثماني مُراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١ م) مدينة أدرنة في ٢٣ كانون الثاني ١٤٣٣ فيذكر بين مُرافقي السلطان «الخليفة الأكبر الذي يُناظر البابا عندنا...» (ص ١١٥). ويبدل Repp (*) مجهوداً كبيراً ليثبت أنّ المقصود بالخليفة الأكبر ليس الخليفة العبّاسي الذي كان ما يزال بالقاهرة تحت سيطرة المماليك، بل المقصود مفتي العاصمة الذي كان أصل منصب «شيخ الإسلام»، رأس البيروقراطية الدينية في الدولة العثمانية، وكان وقتها الشيخ فخر الدين العجمي، المتوفى عام ٨٧٥ هـ / ١٤٦١ م. والمصادر متفقة على أنّ منصب المفتي، شيخ الإسلام، شهد بداياته في عهد السلطان مُراد الثاني، لكنّ الاختلاف بين الدارسين المُحدثين كان وما يزال في طبيعة هذا المنصب، وأسباب ظهوره، ثم التطورات اللاحقة التي جعلت منه المنصب الذي أدخل «فئة العلماء» في بيروقراطية الدولة العثمانية بشكلٍ نهائي. وهناك ثلاث رؤى بين الدارسين لهذه المسألة، والتفاصيل المتعلقة بها. الأولى صاحبها Kramers في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية، وهي تعتبر منصب شيخ الإسلام (مفتي اسطنبول) تقليداً للخلافة

العباسية بالقاهرة. وقد بدأ هذا التقليد في عهد السلاطين الأوائل عندما كانت بورصة عاصمة الدولة، ثم تطور إلى وضعه القوي في عهد مُراد الثاني بعد زلزال تيمورلنك. والثانية لـ Bowen و Gibb في Islamic Society and the West (١/٢/٨٤ - ٨٦) وترى احتمال أن يكون المنصب تقليداً للدور الذي كان يلعبه بطريك القسطنطينية بالنسبة للقيصرة البيزنطيين، إذ كان يقوم بدورٍ استشاري، ودور «تغطية دينية» لتصرفات القيصرة وقوانينهم وإجراءاتهم ذات الطابع المدني. والرؤية الثالثة لـ R. Bulliet في: Studia Islamica XXXV, 53 - 68 وهي ترى أن أصل المنصب في مُدن خراسان في القرن الخامس الهجري. فقد صار شيخ علماء المدينة ذا دورٍ سياسيٍّ بعد أن قوى نظام المُلك علماء الشافعية بالمدارس والأوقاف. وامتد التقليد إلى الشرق، إلى أواسط آسية والهند والصين. وكان الملوك والسلاطين يحاولون موازنته وإرضاء الواصلين إليه لقوتهم الاجتماعية والدينية بسبب نفوذهم القوي على المؤسسات التعليمية الإسلامية. وقد استطاع المماليك (رغم عدم وجود المنصب في مجال سيطرتهم) أن يضبطوا القضاء تماماً بسبب كون القضاة موظفين رسميين، لكنهم لم يتمكنوا من ضبط المدارس رغم تقدمهم في السيطرة على أوقافها. وهكذا جاء تطور منصب شيخ الإسلام لدى الشعوب التركية الإسلامية؛ وفي الدولة العثمانية بالذات ليستوعب كل المؤسسات الدينية الإسلامية في ظلّ شيخ الإسلام الذي صار منصبه منصباً رسمياً، فصار الإسلام وعلمائه جزءاً مستوعباً ضمن بيروقراطية الدولة، وفقد العلم الإسلامي كل استقلالية عن إدارة السلطة.

أما رأي Repp فيبدو أقرب إلى رأي Kramers لكنه يفرّق بين مرحلتين من مراحل تطورات المنصب. فهو يرى أن العثمانيين اصطنعوا المنصب في الأساس لا ليستتبعوا العلماء ضمن جهاز الدولة، بل لإعطاء سلطتهم مشروعيةً إسلاميةً تشبه التي كانت للمماليك نتيجة وجود الخلافة العباسية لديهم. ومن

المعروف أنه بحثاً عن هذه الشرعية، قام بعض السلاطين العثمانيين الأوائل بالمبايعة للعباسيين بالقاهرة. لذلك كان متولّو المنصب بدءاً بالشيخ شمس الدين الفناري (٨٢٨-٨٣٣ هـ/١٤٢٤-١٤٣٠ م) وشمس الدين محمد بن أرمغان، وفخر الدين العجمي (على التوالي) وانتهاءً بأبي السعود أفندي (٩٥٢-٩٨٢ هـ/١٥٤٥-١٥٧٤ م) أكبر علماء السلطنة، ويحظون باحترام السلاطين وتقديرهم وطاعتهم. وهناك قصةٌ تنسب إلى سليمان القانوني (ت ٩٧٤ هـ/١٥٦٦ م) امتناعه عن الإذن لأبي السعود شيخ الإسلام بالذهاب للحجّ لأنه لا يستطيع الاستغناء عن آرائه وفتاواه طوال شهور غيابه. وهكذا فإنّ Repp يختلف مع القائلين بأنّ منصب المفتي أو شيخ الإسلام كان قليل الأهمية ثم ازدادت أهميته ضمن البيروقراطية الدينية بسبب دعم السلاطين للذين تولّوه لكي يضبطوا بهم العلماء والمدرّسين. إذ الواقع أنّ المنصب كان من خارج الهرمية المعروفة للعلماء أيام العثمانيين، وقبلهم في الدول الإسلامية الأخرى. فقد كانت المشكلة التي واجهها العثمانيون جديدةً في طبيعتها، وبخاصة بعد أن ساءت علاقاتهم بالمماليك، ولم يعودوا يريدون الارتباط بهم أو التبعية الشكلية لهم عن طريق البيعة للخليفة الواقع تحت سيطرتهم. وقد حاول الإيلخانيون في إيران عندما أسلموا حلّ مشكلة شرعيتهم دون التبعية لأعدائهم من المماليك بالتحول عن التسنن إلى التشيع لخلق أساس جديد للشرعية والمشروعية. أمّا العثمانيون فلم يكن بوسعهم ذلك لِقِدْمِهِمْ، وقدم قبائلهم في التسنن والتحنّف، فلجأوا لمنصب المفتي، شيخ الإسلام. وكانت رغبتهم في البداية أن يبقى لهذا المنصب مظهرٌ استقلاليٌّ ليظل مقنعاً لهم ولرعاياهم، بعكس ما ذهب إليه Bulliet عندما قال إنّ المقصود من تبني هذا المنصب كان محاولة السيطرة على أجهزة الهرمية الدينية. لكننا نجد أنّ الأمر تطور بعد ذلك إلى استيعاب لمشيخة الإسلام كجزءٍ من جهاز الدولة، مع إعطائها صلاحيات إدارية ومالية كاملة باعتبارها

تنفق على القضاة، والمفتين الصغار، ومدرّسي المدارس الدينية. وهكذا فإنّ القرن السابع عشر الميلادي شهد ظهور فئة «فقهاء السلطان» بالمعنى الحرفي للكلمة. لكنّ كان لا بدّ من الانتظار قرناً أو أكثر بعد ذلك لشهد إطلاق السلاطين على أنفسهم لقب «أمير المؤمنين». أمّا تحول السلاطين عن وضع «مشيخة الإسلام» في موازاة السلطنة، إلى استيعابها ضمنها فربما أمكن إرجاعه إلى أنّ العثمانيين أمكنهم أن يزيلوا البيزنطيين والمماليك، وأن ينتصروا على الصفويين، ثم أن يخترقوا أواسط آسية وأوروبا فصار لقب «الغازي» و«حامي الحرمين» كافياً للمشروعية، ولم تعد هناك حاجة للتأكيد على استقلالية مشيخة الإسلام، وبخاصة أنّ المشيخة بدأت تلعبُ بسبب استقلاليتها النسبية أدواراً في تولية السلاطين وعزلهم.

بذل المؤلف جهداً كبيراً في استنطاق المصادر المبكّرة حول بدايات المنصب، وتطوراته الأولى، والعلماء الذين تولّوه. لكنّ هذا المجال البحثي ما يزال جديداً، وما تزال الوثائق التي تُستخدم لتحليل بداياته وطبيعته قليلة، ومملوءة بالتناقضات. ولمشايع الإسلام من بدايات القرن الثامن عشر مؤلّفات كثيرة لم تجر دراسة أيّ منها. بل إنّ لبعضهم كتباً في سياسة الدولة أو في إصلاحها من ضمن النوع المعروف بنصائح الملوك أو مرايا الأمراء. ثم إنّ للمذهب الحنفيّ (والعثمانيون وعلمائهم جميعاً من الأحناف) تجربته القديمة في التعامل مع الدولتين العباسية والمملوكية واللتين لم تستطيعا استيعابه أو تطويعه بشكلٍ كاملٍ، فهل صحيحٌ أنّ الإدارة العثمانية استطاعت ذلك؟! ثم إنّ مشايخ الإسلام منذ القرن الثالث عشر الميلادي كلّهم تقريباً من الصوفية، بل ويدعون انتساباً للرسول صلى الله عليه وسلم، فما علاقة ذلك بالتطورات المتأخرة للمنصب؟! كلُّ هذه أسئلةٌ قد لا يفيد في الإجابة عليها الرجوع إلى «قانون نامه» أو إلى سجلّات الدولة عن مراتب العلماء ومشايخ الإسلام، بل لا بدّ من البحث في صورة هؤلاء عن أنفسهم، وصورة السلطة

والإدارة عنهم ولهم، ذلك أنّ «الدور الوظيفي» مفيدٌ في فهم التحول والتأثير الواقعي، لكنه غير كافٍ لتعليل المنصب وصورته لذاته، تلك الصورة التي منحته قوةً واستمراراً لا تستطيع إدارة الدولة بمفردها إسباغهما عليه، رغم ضرورته لها.

